Majallah Al-Qism Al-Arabi
University of the Punjab,
Lahore - Pakistan.
No.27, Issue: 2020

مجلة القسم العربي
جامعة بنجاب، لاهور– باكستان.
العدد السابع والعشرون، 2020م.

الحرية في شعر الشابي

ضياء الرحمن
باحث الدكتوراة، قسم اللغة العربية، جامعة بنجاب، لاهور

Abstract

Freedom has a great importance for every nation. It always invited the special attention of poets in different eras. Despite the enormous value of freedom, many nations are lagging behind in the enjoyment of freedom. So the poets used the composition of patriotic and nationalistic verses to liberate their nation from the chains of slavery. To maintain and carry on freedom, The national events are celebrated to show the people significance of freedoms and independence with extremely zeal and zest. Hence, independence is studied with special reference of the poets because their verses create emotions to resist the tyranny. Under given research highlights the freedom and its importance.

الكلمات المفتاحية:

الحرية والشعب واليقظة والكفاح والجهد والحياة والنهوض والمقاومة والاحتلال والسيطرة الحرية هي الطبيعة الكريمة التي جعل الله الناس عليها. وهي تعدّ من أهم الحقوق التى يجب أن يتمتع بها أيّ الإنسان وهي الحق الطبيعي ثابت لجميع البشر،وعليهم الدفاع عن حقهم وليس لأحد أن يتجرّأ على حرمان أخر منها أو إنقاصها أو تحديدها فهي غير قابلة للتصرّف. وهي من أهم قضايا الشعوب، كما هي تشعر الفرد من أفراد المجتمع البشري بأهمّية دوره بل بفعلية وجوده وإكتمال إنسانيته فكل واحد من الناس يطمح لاستقلال بلاده و يريد أن يكون شعبه حرا في اتخاذ القرارات لمصلحة الشعب أو الجماعة أو المجتمع الذي ينتمي إليه. الحرية تشمل على جميع أنواع الحرية الممكنة. ومن المعلوم أنها تؤثر في الإنسان تأثيرا بالغا .وقد نالت مظاهرها اهتمام الشعراء والأدباء في العصور القديمة والحديثة على السواء عند الأمم المختلفة .وتعريفها كما يلي:

الحرية لغة: حسب ما جاء فى معجم لسان العرب (كلمة الحر من كل شيء هي: أعتقه وأحسنه وأصوبه والشيء الحر:هو كل شيء فاخر وفى الأفعال هو الفعل الحسن والأحرار من الناس أخيارهم وأفاضلهم)[1] والحرية بكلمات أخرى وهي الخلوص من الشوائب أو الرق أو اللؤم. كون الشعب أو الرجل حرا. في الاقتصاد: مذهب اقتصادي يرمي إلى اعفاء التجارة الدولية من القيود والرسوم .[2]
الحرية اصطلاحا:تعددّت مصطلحات الحرية حسب المذاهب المختلفة ولكنه ورد فى إعلان حقوق الإنسان أصدر عام 1789م على أنه(حق الفرد فى أن يفعل ما لا يضرّ الأخرين).

Liberty: freedom to live as you choose without too many restrictions from government or authority.

2-the state of not being a prisoner or a slave:he had to endure six months loss of liberty.

3-The legal right and freedom to do sth:the right to vote should be a liberty enjoyed by all.

4-An act or a statement that may offend or annoy sb,especially because it is done without permission or does not show respect.[3]

نظرة عابرة إلى حياة أبي القاسم الشابي

ولد في بلدة "توزر" التونسية عام 1909م. في بيت مُحَمَّد الشابي. توفي والده وهو في العشرين من عمره وقد أثرت وفاته على شخصية أبي القاسم. تلقى تعليمه الإبتدائي في بلدة ''قابس''. ثم التحق بجامعة الزيتونة . فحصل على ثقافة واسعة عن الأدب العربي كان قديما أم كان حديثا وكان واسع المطالعة كما كان يرتاد المجالس الأدبية والمنتديات الوطنية. توفّي أبو القاسم الشابي إثر نوبة قلبية عام 1934م. وكان نحيف الجسم مثل الشاعر الباكستاني ساغر الصديقي. وكان شاعرا مبدعا وهو من رواد المدرسة الرومانسية في تونس ولكن نال شهرة واسعة في الشرق والغرب بسبب أفكاره الحرة.[4]

أما دراسة عن الحرية عند الشاعر أبي القاسم الشابي مهة جدا،لأنه أحد من شعراء الحرية والكفاح للعصر الحديث.[5] أنه اشتهر بقصيدتة الرائعة "إرادة الحياة" وبلغ من إعجاب الأجيال العربية بها وحماستهم لها جدا جعل كثير من أبياتها أمثلة حية على طموح الشباب وسعيهم لبلوغ القوة واقتحام الخطر وطلب الحرية وخاصة فى البيت الذي يقول فيه:

إذا الشعب اراد الحياة فلا بدّ أن يستجيب القدر

وقد بيّن الشاعر هذه الأفكار بطرق كثيرة وأساليب متعددة. حسب رأيه "إنّ الحرية تؤخذ ولا تعطى."

أما الأقوام المتقدّمة تريد سيطرتها على البلاد الإسلامية بأكملها و لهذا الغرض يختارون أساليب متعددة ومتنوعة خلابة كسياسة الإدماج وتتكّلم عنها كالسبيل الوحيد الذي لا معدى عنه للشعوب إذا أرادت نيل حقوقها في هذا العالم. يوضّح عنه الشاعر بفلسفته ''الثعبان المقدس'' ويقول:

''فلسفة الثعبان المقدّس هي فلسفة القوّة المثقّفة في كل مكان. وكما تحدّث الثعبان في القطعة التالية إلى الشحرور بلغة الفلسفة المتصوفة حينما حاول أن يزيّن له الهلاك الذي أوقعه فيه. فسمّاه (تضحية) وجعله السبيل الوحيد للخلود المقدس...

كذلك تتحدّث اليوم سياسة الغرب بالشعوب الضعيفة بلغة الشعر والأحلام حينما تسعى أن تسوغ طريقتها في الشعوب الضعيفة والعمل لقتل ميزات الشعوب الضعيفة فتسميها سياسة الإدماج وتتكلّم عنها كالسبيل الوحيد الذي لامعدى عنه للشعوب' إذا أرادت نيل حقوقها في هذاالعالم، وبلوغ الكمال الإنساني المنشود. ولكن الفناء حقيقة شنيعة مبغضة' لاينقص من فظاعتها وكرهها كل مافي التصوّف والفلسفة والشعر من خيال وأحلام''.[6]

وبهذه الفلسفة يريد الشاعر أن يجعل لقومه شيئا من الشعور لإفهام تلك المؤامرات والتيارات والحيل لأعدائهم التي يسقطون ويدمّرون وينهدمون بها شأن المسلمين وبلادهم وأوطانهم مهما كانت بلادهم في هذه الدنيا كما قال الشابي:

سعادة النفس التقيّة أنّها يوما تكون ضحية الأرباب [7]

الأقوام المتقدّمة حتى وكل عدوّ من اعداء المسلمين لايزال يسعى لسقوط شأن الأقوام المتخلفة وخاصة شأن المسلمين في هذ االكون. فالشاعر يعرف هذا بأكمله و لذا يستيقظ قومه من نوم الغفلة. ويهزّ أعصابهم بأن يعقلوا ويشعروا وينتبهوا عن مؤامرات الأعداء،وتياراتهم وهم في عهودهم وادعيتهم كذّابون ويقومون بنشر هذه السيطرة والسلطة على بلاد المسلمين باسم (الحرب للأمن والسلام). أمّا رجالهم السياسيون ورجالهم للدين فهم يبدؤون نشر الاحتلال والغلبة والسيطرة على المسلمين باسم القضيّة الشعبية ويحرّضون الناس على الحرب و هذا تعتبر عندهم فريضة دينية. وعلى هذا السبيل يقومون بخداع الناس الساذجة.

ففي صدر الشاعر وقلبه محبّة حميمة لشعبه. وهو يستعمل كل وسيلة من وسائله ليكشف ستار عن ذلك النفاق والخداع والعداوة الذي مكتوما في

قلوب أعداء المسلمين ويحاول كل محاولته لنهضة شعبه ويعطيهم أفكارا سامية رفيعة نادرة كما أنه يحرّض قومه وشعبه بأن يكون شديدا على الأعداء والمستعمرين والمستغلين والغاشمين ورحماء بينهم ، و عليهم أن يُعِدّو القوّة إلى حد ما يستطيع لإلقاء الرعب في قلوب اعدائهم كما قال الشابي:

لا أرى للحق الضعيف' ولا صدى الرأي' رأي القاهر الغلاّب [8]

يبين الشاعر الفذ مقومات الحرية بأساليب متنوعة خلابة كما نلاحظ بأنه يحرّض قومه دائما على حصول القوّة' وترك الضعف لأنه يفكّر بأن هذا الطريق هو الطريق الوحيد لعيشة طيبة راضية في هذا الكون.فيقول:

لا أين؟ فالشرع المقدس ها هنا رأي القوّي وفكرة الغلاّب[9]

إن فلسفة الاستعمار تعتبر من معوقات الحرية عند شاعر الحرية أبو القاسم الشابي ولذا انه يحث شعبه بأن يفهم مؤامرات الأعداء ويستعد لفناء الغاشمين والظالمين. وهو يعبر عن هذا في الأبيات التالية' وضع الشاعر أمامنا مثالا في صورة حكائية حالة الضعيف الذي كان سعيدا و لكن كان جرمه بأنه كان حرّا فوثب عليه الثعبان ودمّر حرّيته و فرحته و أغنيته السعيدة للحياة وما استطاع ذلك الضعيف أن يحصل القسط والعدل رغم أنه كان مظلوما' وعندما يسأل هذا المظلوم عن القسط والعدل من القوى فيجاب حسبما قال الشاعر:

لا عدل إلّا إن تعادل القوى وتصادم الإرهاب بالإرهاب[10]

وعند ما ييئس المظلوم من القسط والعدل فيجيبه الأ قوياء واهل السلطة إجابة فلسفية، التي بيّنها الشاعر بهذه الفلسفة قائلا:

إنّي إله طالما عبـد الورى ظلّي وخافوا لعنتي و عقابي[11]

في هذه الأبيات قد بيّن الشابي فلسفة الإستعمار وسياسة الإدماج بأحسن صورة ويعطينا الرسالة بأن نكون عارفين كلام الظالمين وطرق خداعهم المتعدّدة المتنوّعة المتلوّنة وصوّر الشاعر أمامنا هذه الصورة المذكورة ببيان حكاية

الثعبان القويّ الذي وثب على الغرّ الشحرور الضعيف وسلب واستغلّ حريته وحياته السعيدة اللطيفة لقبضه على الشحرور وهلاكه ودماره. يقول الشابي:

سعادة النفس التقيّة أنها يوما تكون ضحية الأرباب

وقول الثعبان للغرّ:

أفلا يسرّك أن تكون ضحيّتي فتحل في لحمي و في أعصابي[12]

يعظ الشاعر شعبه بأن يحصل الأشياء المهمة للحياة وأن يتحلّى بحلية العلم والحلم والرفق والقوّة والشدّة والمنطق والات الدفاع والتسامح والوسطية والاعتدال في أفكارهم وهذه الخصائص السامية التي تحصل بها الحرية الحقيقية في رأي الشاعر.

إن العدو المستعمر المستبدّ المستغل عند الشاعر هو في الحقيقة عدو الحياة والناس، صديق العدم والفناء، تتخضب بالدماء أنامله ، ويسخر من أنات الشعوب الضعيفة ،ويدنس بأقدامه سحر الوجود،ويبذر شوك الأسى والحزن في كل مكان،ويحذره الشاعر بألاينخدع بمن يراه من الصحو وابتسام النور في الربيع،فستعصف به الريح العاتية، وستجرفه أمواج الدماء التي أسالتها دموعها في أرجاء الوطن،كل ذلك سيلتف به ويبتلعه ابتلاعا.

ثم يوضح الشاعر مقومة الحرية وهي إنذار وترهيب طغاة البلاد بأن يتركوا الفساد فى الأرض. وأن يمتنعوا من الظلم هذا هو الطريق الوحيد النبيل لنيل الحرية. كأنّ الشاعر الشابى يمللک قلبا حسّاسا الذي يشعر به كل شيء ما حوله. وقد أعطى قومه فكرة الكفّ عن الظلم والإستعمار. وكان يقول للناس عامة وطغاة الغرب خاصة بأن يتركوا سعة بلادهم لأن الضعفاء قد يشعرون ويقومون ضد الاستبداد كما تشتمل الرماد باللهيب الذى يحرق كل شيء. وكان يقول لطغاة العالم "لاتَظلمون ولا تُظلمون".

وقد استخدم الشاعر في ابياته العبارات والكلمات والتعبيرات الرمزية وبها عبرّ عن عواطفته الصادقة مثلا: (الظالم المستبد، حبيب الفناء، عدو الحياة، تبذر

الشوك، تدنس الوجود، كفك مخضوبة بدماه)، وفيها دلالة على الحقبة الظالمة التي عاشت فيها تونس آنذاك. وهكذا حذّر الشاعر طغاة العالم من الظلم وتروية التراب بدم الناس وأخبرهم بأن الذين يسفكون دماء الناس، لامحالة لدمهم سيسيل من قبل الضعفاء الذين سينهضون ويقومون في ضدّ قواما ويقفون امامهم وقّافا بسبب الظلم والإعتداء، كما قال:

سيجرفك السيل ،سيل الدماء يأكلك العصف المشتعل[13]

نستطيع أن نقيس بأن الشابي قد أدّى حقه في حرية شعبه وأخبرهم عن سر النهوض والثورة ضد الإستعمار، ولكن اختار لهذا الهدف طريقة جديدة وحديثة وأسلوبا خلّابا كما قال:

''حذار! فتحت الرماد اللهيب''[14]

وهكذا نرى محاولة الشابي لإيقاظ قومه ببيان ضعف الظالمين وعدم المقاومة من قبل شعبه. قد أيقظ قومه وشعبه من نوم الغفلة كماأخبر شعبه أنه يستطيع أن يغلب على طغاة العالم بسبب همه وعزمه، كما قال:

رويدک! لا يخدعنّك الربيع وصحو الفضاء وضوء الصباح

ففي الأفق الرحب هول الظلام وقصف الرعود، وعصف الرياح[15]

كان الشابي يدعو قومه إلى الرقى والطموح والأحلام والرسوم والأنغام. وقضى حياته في هذه الدعوة. وكان يتمنّى أن يرى شعبه على قمة الرقى. ولهذه الغاية اختار طرقا مختلفة متنوّعة. وفي رأي الشابي حياة الذلة والإهانة، لايستحسن لقومه. والموت خير من حياة الإهانة والذلة' كما قال شاعر:

رُبّ عيش أخفّ منه الحمام[16]

يتمنى الشابي أن يكون شعبه صاحب الطموح والأحلام. ويحرّض شعبه بأن يكون ذا قلب خافق حساس. ويريد من شعبه الخير و الرقى في كل مجال من مجالات الحياة. فلذا يحرّض شعبه على استخدام موهّلاته ومهاراته وفنونه في مختلف مجالات الحياة. كما يقول الشاعر:

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر[17]

يستشير الشاعر في هذا البيت أمته العربية كى تنهض لتثأر لكرامتها ،وتدمر المستعمر وترمي به إلى ما وراء البحر، لأن أمته وشعبه لا يستطيع أن يحيا حياة كريمة إلا إذا قام في مواجهة هؤلاء الطغاة ، واقتحم على العدو حصونه وقيوده ولن يخرج الشعب من حالة الموت التي يحيا فيها إلى حالة الحياة إلا إذا نشط فيه دافع الحياة، وأبدى إرادته وعزمه ،وهذه الإرادة لا تنجم إلا من حرارة الأشواق التي تمور بداخله ، وإذا خمدت أشواق الحياة لديه فيفقد الطموح لحياة كريمة سعيدة ، حتى يصير حيا كأنه ميت، أو ميت كأنه حي.

ويبدو توفيق الشاعر في أسلوبه حيث استخدم أسلوب الشرط فيه، كما استخدم الألفاظ الدالة على استبداد المستعمر وطغيانه مثل قوله (للقيد، ينكسر، اندثر، الحفر، قصف الرعود،الخطر، ميت الطيور، ميت الزهر)كما استخدم الألفاظ الدالة على الطموح والإقبال على الدنيا مثل قوله (الحياة،طمحت،لبست المنى، خلعت الحذر، الكون حي يحب الحياة) فالألفاظ الأولى يرفع فيها منزلة أمته لتقوم للحرية وفيها جرأة حتى تفتدي نفسها وتأثر لكرامتها وعزتها ، والثانية يعبر بها عن إقباله على الدنيا ورفضه عيش الذل والاستكانة ، ويدل على بصره وتمكنه من لغته الشعرية.

ثم يبين الشاعر لقومه السبيل الوحيد للرقى والنهوض والغلبة وهو العمل والأمل والدوام عليه. وفي رأي الشابي'الحياة عبارة عن العمل واليقظة والشعور. وهو أيضا يُخبر قومه بأن نوم الكسلان يغيّر الحياة ميّتا، وتصير الحياة جدثا تسخر منه الأجداث كما قال:

وحياة، تنام في ظلمة الـوادي وينمو من فوقها الأوهام

أيّ عيش هذاأيّ حيـــاة رُبّ عيش أخف منه الحمام[18]

وعندما نفكّر في النهوض عند شاعرنا لابدّ لنا أن نصل إلى النتيجة بأن

العزم الصميم هو أساس النهضة. ولانستطيع أن نتصوّر النهوض دون الجهد المستمر. والدوام على مواجهة التكاليف والمتاعب وكلّ قوم عندما يتحلّى هذه الأوصاف السامية الرفيعة التي بيّنها شاعرنا أبو القاسم الشابي فلابدّ أن تنهض وتصل إلى المراتب الرفيعة والأهداف المطلوبة وهذه الأوصاف والخصائص السامية الرفيعة تكسّر القيود والمحابس والسجون، وترفع القوم رفعة عظيمة والأقوام الأخرى تفتخر بأن تربط بهذه الشعوب المتقدّمة الحرّة. ولا يستطيع أحد من أعدائهم أن يقف أمامهم ويلدغهم ويثب عليهم بل يكونون امنين مطمئنين بأكملهم وتحقّق لهم حياة طيّبة وعيشة راضية. قال الشاعر تعبيرا عن هذا:

وأعلن في الكون أن الطموح لهبيب الحياة وروح الظفر
إذا طمحت للحياة النفوس فلا بد أن يستجيب القدر[19]

حصاد البحث:

نستخلص هذه الورقة البحثية التى تدور حول الحرية في شعر أبي القاسم الشابي بأنه كان حريصا لحرية شعبه. وقد استخدم لهذا الغرض سلاح شعره.فنجده محاولا لحرية قومه وينفخ في نفوس الناس روح الحرية بنور الشعر وببصيرته العلمية .كما أنّه استخدم لذلك الغرض أسلوب الاستفهام والكناية والتعجب والتشبيه وغيرها فى شعره عن الحرية.

الحواشي والهوامش

1. ابن منظور الإفريقي، لسان العرب باب الحاء.. الناشر دار المعارف، بيروت، ج 1 ص، 1014
2. المعجم الوسيط ،مجموعة المؤلفين ، الجزء الأول والثانى ،مجمع اللغة العربية،الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث،ص:207
3. Salley Wehmeier,oxford advanced learner dictionery,seventh edition ,oxford university press,page no:884
4. مجيد طراد، ديوان ابي القاسم مُحَّد الشابي، دار الكتاب العربي، ص:10

5. كرو مُحَمَّد ابوالقاسم ،الشابي حياته وشعره، منشورات دار مكتبة الحياة،بيروت، ص:30
6. عمر فاروق الطباع،الدكتور،ديوان ابي القاسم الشابي ،أغانى الحياة، شركة دار الارقم بن أبي الارقم،للطباعة والنشر والتوزيع، ص:31
7. المصدر السابق، ص:34
8. المصدر السابق، ص:34
9. أحمد حسن بسج،ديوان الشابي، دار الكتب العلمية:بيروت 1965م، ص:33
10. المصدر السابق، ص 32
11. المصدر السابق، ص 33
12. المصدر السابق، ص 33
13. أحمد حسن بسج،ديوان الشابي، دار الكتب العلمية:بيروت 1965م، ص: 160
14. المصدر السابق، ص:160
15. المصدر السابق، ص:160
16. عمر فاروق الطباع،الدكتور،ديوان ابي القاسم الشابي ،أغانى الحياة، شركة دار الارقم بن أبي الارقم،للطباعة والنشر والتوزيع، ص:194؛ وأحمد حسن بسج، ديوان ابى القاسم الشابى، دار الكتب العلمية :بيروت 1965م، ص73
17. المصدر السابق، ص70
18. عمر فاروق الطباع، الدكتور، ديوان ابي القاسم الشابي ،أغانى الحياة، شركة دار الارقم بن أبي الارقم،للطباعة والنشر والتوزيع، ص:194
19. المصدر السابق، ص 72

*_*_*